



يستهجن دبلوماسي في مقال له في أحد مطبوعات "النظام" ويعيب على الكتاب والمثقفين العرب / بعد أحداث باريس / ما سماه اكتشافهم المتأخر لزيف الغرب ونفاقه بازدواجية معاييره.

ينذكرهم أن هذا من منسيات دولته المممانعة. يقول: "نستطيع كتابة مجلدات أكبر من مجلدات الموسوعة البريطانية أو الموسوعة الأمريكية عن نفاق هذا الغرب" يقلقه ويؤرقه السؤال التالي: "لماذا الإنسان رخيصاً لهذا الحد في بلداننا العربية بالنسبة لهذا الغرب وللصهاينة، ولماذا إنسانهم هُم غالٍ جداً ومكانته كبيرة لهذا الحد ويستنفرُ شعبُ بالكامل حينما يلحق ضررٌ ما أو أذى بأحد أفراد هذا الغرب في أي مكان بالعالم؟" يسارع بالطبع لتقديم الإجابة الفاطحة المانعة بصيغة بلاغية استنكارية: "كيف سنطلب من هذا الغرب أن يحترم إنساناً العربي إن كان في بلدانه وأوطانه ذاتها لا يحظى بذرة من الاحترام، بل يُعامل كما لو كان حشرة تزحف على الأرض!!" يزيدنا الكاتب الدبلوماسي مزياناً ومدعماً أقواله بالحكم والأقوال المأثورة في وصفه للغرب المنافق محاولاً أن يثبت مدى جهالة وضحالة معرفة المثقفين والكتاب العرب وعمق معرفته وتجربته بالقادة الغربيين، فيقول: "نفاق هذا الغرب ليس بجديد... إنه يقتل القتيل ويمشي بجنازته".

وهنا يطلق سؤالاً استغرابياً آخر: فكيف ستكون دمائنا وكرامتنا وإنسانيتنا محترمة لدى الغرب إن كانت مدعاوسة ومعفوسة في بلداننا.. ثم نتندّر على الغرب ونلومه لأنّه يتعامل بازدواجية المعايير؟... يالها من سخافة...  
كلما أطلق صاحبنا مقوله حكيمه أو سؤالاً استغرابياً، تجدني أتعجل إلى الاستفسار منه عن الجهات التي يقصدها؛ ولكن سرعان ما أقول لنفسي: لا بد أن أمراً ما قد حدث؛ ولا بد أنه في بلد خارج حصن الوطن ويتكلم الآن بحرية.

انتظرت قليلاً، وتابعت مرافعاته لأجده ينتقل إلى أمثلة حية عن مكر الغرب ونفاقه فيورد قصة الطفل محمد الدرة بنغم عال من الاستنكار: "هذا الغرب هو من لم تؤثر به صورة الطفل (محمد الدرة) وهو يبكي ويرتجف من الخوف وبختبيه خلف أبيه كي لا تصيبه رصاصات الغدر الصهيوني في آخر أيلول 2000، في مشهدٍ أبكى حجارة." تصورت في هذه اللحظة أن يسارع إلى الحديث عن المجازر بحق أطفال سورية - على الأقل أولئك الذين قضوا بالسلاح الكيماوي "للنظام" ولكن فجأة يتبع مستفسراً باستغراب: لماذا؟ ويجيب: "لأن الإنسان لدينا رخيص في عيون حُكمانا ومسؤولينا"... بل وشعوبنا قبل أن يرخص لدى الغرب.." هنا يقدم لنا معلومة إبداعية جديدة وهي أن الإنسان العربي رخيص أيضاً في عيون

الشعوب العربية، كل ذلك ليوصلنا لمراقبته الأساسية عندما يقول: ”ولنا اليوم بما يحصل في العديد من البلدان العربية مثلُ صارخٌ لرُخصِ الإنسان لدى الجماعات المسلحة التي تقطع رقاب البشر وكأنها (فواريج)، وتغتصب النساء وتخطف البشر من الطرقات... و و و ...“ كل ذلك من أجل الزج بالعبارة السحرية (الجماعات المسلحة) وهنا بيت القصيد في كل ذلك الاستعراض... فالجماعات المسلحة ليست إلا اصطلاحاً أبدعه نظام الإجرام في دمشق ليشير لكل من يخالف النظام أو لا يكون مواليًا له بالروح والدم.

هنا يتضح المغزى تماماً ويأتي البوج؛ فما يقلق صاحبنا ليس نفاق قادة الغرب فقط بل نفاق وتجني بعض المعارضين السوريين. لنقرأ زيدة ما يريد: ”هل قرأتم كيف أن البعض من المعارضين السوريين وأشاروا بأصابع الاتهام للدولة السورية في (غزو) شارلي إيدو؟“

لم يشيروا لأية أصابع صهيونية أو غيرها، بينما في هجوم 11 أيلول 2001 الكل أشار للموساد، أما اليوم فقد أصبح جماعة الموساد حمائم وملائكة وأصحاب وأحباب لا يفعلونها، بينما الدولة السورية هي المسئولة عن أي عمل إرهابي بأي مكان بالعالم... هل من عقلٍ مُضحك أكثر من هذا؟..“

رأودني في تلك اللحظة أن أسأل: من قال لك أن الموساد حمائم وملائكة. أليسوا فقط هكذا – كما تصف – مع سلطتك؟ لفتنني أيضاً استخدام عبارة ”الدولة السورية“. أردت أن أسأل فيما إذا كان الاختباء وراء الدولة السورية أو اغتصاب اسم الدولة السورية أو أخذ الدولة السورية رهينة أو الشكوك بالارتكاب؛ لأن المريض أن يقول خذوني؟

رغم تأكدي أنه يريد أن يرفع عن ”الدولة السورية“ التي تعني له فقط العصابة الحاكمة في دمشق إلا أنني آثرت التريث، آمالاً أن يكون قد حصل أي تغيير رباني وبدا صاحبنا ينطق بالحق وسيخُص العصابة المذكورة بشيءٍ مما تستحقه على الأقل بمثل أو بأقل مما قاله في الآخرين من الحكم والدول؛ ولكن عبثاً. عاد صاحبنا واستأنف هجومه على الساسة الغربيين وشمل معهم الساسة العرب:

الساسة الغربيون منافقون، وهم يعرفون أنفسهم، ولكن هل الساسة العرب أقلُّ نفاقاً؟.

ثم ينتقل إلى فلسفة النفاق الذي له أهداف عند القادة الغربيين: ”هم لِنفَاقِهِمْ أَهَدَافٌ لَا كِتَابٌ الشَّعْبَيَّةِ وَالْوَصْلُ لِلسلطةِ وَلَكِنْ حِينَمَا لَا يَرْتَقُونَ لِمَسْطَوِيِّ طَمُوحَاتِ شَعْبِيهِمْ فَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ نَفَاقِهِمْ وَلَا يَفِيدُهُمْ، يَتَغَيَّرُونَ...“ يضعنا الأخ أمام صنفين: قادة الغرب الذين ينافقون ليروقون؛ وعند عجزهم يتغيرون؛ ولكن شكواه الأساسية من أولئك الذين ينافقون ولا يعجبون شعوبهم ولا يتغيرون. الجهة التي أعفاها من الساسة كان أولئك الذين ينافقون ولا يعجبون شعوبهم ولكن ليس فقط لا يتغيرون بل يقتلون من يفكر بتغييرهم.

يدعونا الكاتب للتفكير بموضوعية وعقلانية بالأسباب التي جعلت الغربي ذا قيمة والعربي بلا أهمية. يسارع فوراً إلى ذكر تلك الأسباب:

”المسؤولون في بلداننا لا يهتمون بشكوى المواطنين؛ والغرب لم يطلب منهم ذلك؛ ولم يطلب منهم تخريب بلدانهم، أو أن يتصرفوا بعقلية زعران الشوارع والأزقة، والشلالية ومنطق المafيات ويجعلوا من المؤسسات ملكية حصرية، وليس الأجنبي من قال لهم ادعسو على كل المعايير والأسس والقواعد واستبدلواها بالمحسوبيات والشخصيات والكيديات (وستين عمره ما يكون فيه دُولٌ ومؤسسات).. وكل من لا يعجبه يضرب راسو بالحيط؛...“

يخلص صاحبنا إلى استنتاج مفاده ”أن الإنسان في بلداننا، حتى من (نخب المجتمع) لا مكانة له ولا تقدير ولا احترام إلا بمقدار الدعم والمحسوبيه والواسطة والتبنّي.“

ظننت للحظة أن صاحبنا يصف بدقة ما تفعله سلطة دمشق الاستبدادية؛ ولكنه رأفة بها وحياةً يعفيها من ذكر تدميرها البلد وتهجير أهله واعتقال من تشكي به وترتكب المجازر وتقتل مواطناتها تحت التعذيب.

عدت لعلقي وقلت: يستحيل أن يعتبرها إلا من صنف الآلهة؛ فكيف يمكن أن يقول ذلك؟! ومن هنا أجزم أن صاحبنا يقصد حسراً كل القيادات العربية "العميلة" التي لا تستخدم ضميرها وكل الشعوب العربية الغبية التي لا تستخدم عقلها؛

أما الاستثناء الوحيد المنزه عن أي سلبية مهما صغرت فهي القيادة الحكيمة التي يكتب من حضنها... ودليله على ذلك المقابلة الأخيرة لرأس تلك السلطة والتي نفى فيها أن يكون ارتكب ولو خطأً واحداً. لا حول ولا قوة إلا بالله...

كلنا شركاء

المصادر: